

ادب عربي، سال ٨، شماره ٢

باييز و زمستان ١٣٩٥

رفض الحرب و العنف و إدانة نظام البعث عند الروائية العراقية هدية حسين

مهاد بازگير*

طالبة الدكتوراه في اللغة العربية و آدابها بجامعة طهران

شهريار نيازي

استاد مشارك في اللغة العربية و آدابها بجامعة طهران

(من ص ٥٥ الى ٧٤)

تاريخ الاستلام: ١٣٩٢/٠٩/١٨، تاريخ القبول: ١٣٩٥/٩/٣٠

الملخص

واجهت العراق أبشع الحوادث و أشدّها في مرحلة سيطرة حزب البعث عليها، و ذلك نتيجة لسياسة رؤسائه الموحّاء، و لكن بسبب القمع و الكبت في هذه الفترة لم تظهر الحقائق فيها كما هي. و بعد سقوط حزب البعث في عام ٢٠٠٣م، انبرت الأقلام لتكشف عن هذه المعاناة و المصائب و عبّرت عنها بفنون أدبية مختلفة و ظهرت روايات كثيرة قاسمنا الساحة الأدبية مع الرجل في مجال كتابة الحقائق الملتخحة بالدماء، و صوّرن تلك الحقبة السوداء من التاريخ بدقة متناهية؛ و كانت هدية حسين من اللواتي أخذن على كاهلهن هذه المهمة النبيلة، فاستطاعت الولوج في العالم المظلم الذي كان مفروضاً على الشعب العراقي، و صاغت مشاهد الألم و العذاب و جسّدتها في رواياتها بوصف حزين. يسعى هذا البحث معتمداً على المنهج الموضوعي- التحليلي إلى تبيان فكرة رفض الحرب و العنف عند الروائية هدية حسين من خلال شخصياتها الروائية، و مواقفهن التي تتمثل في نزعة الغضب و الاحتجاج ضد النظام السابق و أذنابه، و تسليط الضوء على آثار الحرب الاجتماعية و النفسية في المجتمع العراقي، مروراً بحرب العراق ضد ايران ١٩٨٠-١٩٨٨ م، و الكويت ١٩٩١م، و الانتفاضة الشعبانية، و الحرب الثالثة (سقوط النظام و الاحتلال) ٢٠٠٣م، و انتهاء الحرب الأهلية (الطائفية) التي شهدتها العراق بعد السقوط بسبب الاحتلال و الأوضاع المتدهورة.

الكلمات الدلّلية: الرواية العراقية، هدية حسين، رفض الحرب و العنف، إدانة نظام البعث.

Nehadbazgir2017@Gmail.com

*. البريد الإلكتروني للكاتبة المسؤولة:

١. المقدمة

مرّت الرواية العراقية بمضامين عدّة منذ عقود خلت، و كانت تلك المضامين تدور في فلك الواقع السياسي و الحالة الاجتماعية و الاقتصادية المحيط بها، فكانت الرواية ذات أسلوب فني، واقعي و بسيط متأثر بالواقعية الروسية و التركية التي كانت سائدة آنذاك، ولم تتغير ما بين دفتيّ هذه الروايات رغم التغيير الطارئ على الأوضاع بعد سقوط الملكية، فجاءت الجمهورية بحكومات متعاقبة ملّطحة يدها بالدم و القتل و الدمار و السجون و المهجرة... ليأتي الزمن، زمن الموت إثر الحرب العراقية الإيرانية التي فرضها صدام حسين على الشعبين و ما بعدها من حروب و حصار. و تظهر موضوعات برؤية واحدة لكن بملابسها المختلفة، فهي مضامين الحرب التي كُتبت بجانب أحادي مؤيداً لفكر الحزب الجاثم على السلطة، و ابتداءً العد التنازلي لمسيرة الرواية، و لكل أشكال الجماليات من فن و أدب و تاريخ و علم و تطور، فتحوّلت الرواية خلال تلك الحقبة السوداء التي دامت أكثر من ثلاثين سنة إلى رواية استهلاك محلي و تبرير فني مخدوج لكل الأحداث التي شهدها الشارع العراقي؛ فظهرت مثلاً روايات عن صدام حسين في بطولاته و تحولاته العجيبة و تكريمه للشعب العراقي في إدخاله التاريخ عنوة في أذنيه! ثم أتت الحروب و الحصار، و ابتداءً التطبيل لأدب الحرب، و كُتبت الرواية باستهلاك عجيب و سهولة غريبة لدرجة أن رأس النظام ارتأى أن يكون روائياً هو الآخر، و أصدر روايات ضخمة الحجم مليئة بالنضال و الوطنية و التحدي. و تلك الأعمال و ما فيها لم تبق في الذاكرة رغم عمر إصدارها القصير.

إن ما حدث من سقوط للنظام البائد و نهايته يوم ٢٠٠٣/٤/٩ أدى إلى أن يشعر الروائي العراقي أنه قد تخلص من قيود الرقيب و الرقابة التي كانت بمثابة مقصلة فوق عنقه؛ فنجد قد بدأت عند الروائين أنفاس جديدة يستنشقونها ليتنفسوا سعدائهم من خلالها و يوحوا بها عن هموم شعبهم التي يجب طرحها. «فالقصة هي أقرب فنون الأدب إلى الحياة، و هي صورة المجتمع و جزء يعكس واقعه... للتعلم في أعمال الحياة و لفهمها و اكتشاف النفس الإنسانية» (الهواري، ١٩٧٩: ٣٧) و هذه الرؤى بدأت تظهر أكثر فأكثر عند الروائين المغتربين الذين هربوا من جحيم الحروب و الدمار و بعض الروائين في داخل العراق، فاستطاعت رواياتهم أن تلمس الجرح النازف و لو بخوف حيناً و باستحياء حيناً آخر؛ فباتت تلك المضامين تُكتب بروح المقالة السياسية، لكنها امتلكت شروط بنائها الروائي فأنبأوا بنشر ما خلفه النظام السابق و

منظومته من إعدامات و سجون. و في هذا الخضم كانت الروائية هدية حسين واحدة من طليعة الروائيين الذين طرحوا مسألة الحرب و معاناة الإنسان و الحصار و ما جسده من جوع و فاقة و ذل في رواياتها التي نشرتها في أوقات مختلفة، حيث أرّخت لمرحلة، بل لمراحل من تاريخ العراق المعاصر. و قد تطرق هذا البحث إلى خمس روايات لها و هي: (بنت الخان، و ما بعد الحب، و في الطريق إليهم، و مطر الله، و نساء العتبات) لما يتجلى فيهن ما يتطلب و يهدف اليه المقال.

في ما يتعلق بموضوع البحث لم نجد دراسة مستقلة بهذا العنوان، لكن هناك دراسات كتبت عن رواية المرأة العراقية عموماً، و عن الروائية هدية حسين و بعض موضوعات رواياتها كالمرأة و الحرب عبر المواقع الالكترونية. و إننا رغم محاولاتنا الكثيرة لم نجد دراسة تستعرض فكرة رفض الحرب و العنف في روايات الكاتبة.

قد اتبعنا في هذه الدراسة المنهج الموضوعي - التحليلي عند تحليل الأحداث و شخصيات روايات هدية حسين و مواقفهم التي تتمثل في نزعة الغضب و الاحتجاج ضد النظام السابق. هذه المقالة تحاول الإجابة على الأسئلة التالية:

١- كيف تناولت الكاتبة فكرة رفض الحرب و العنف من خلال شخصيات رواياتها؟

٢- ما مدى تأثيرها بالواقع دون التأثير بالسلطة؟

٣- هل نجحت الروائية في اظهار آثار الحرب الاجتماعية و النفسية في المجتمع العراقي؟

الهدف الذي يكمن وراء هذا البحث هو تسليط الضوء على حقبة مهمة من تاريخ العراق، و كشف القناع عن جرائم حزب البعث البشعة، و رفض الشعب العراقي لسياسته الهوجاء التي فرضت عليه و أدت إلى ضياع حقوقه و أحلامه و آماله من خلال الحروب و الانتفاضة و الطائفية و أحداثها الدامية التي تجلّت في روايات الكاتبة.

٢. هدية حسين

ولدت هدية حسين عام ١٩٥٢م في بغداد، و عاشت في منطقة تدعى خان الحاج حسن. تلقت الروائية تعليمها في مدرسة نجيب باشا النموذجية الابتدائية، و منذ ذلك الوقت أحست بالفوارق الطبقية في المجتمع؛ ففي مدرستها أمامها الكثير من أبناء الذوات و العائلات الثرية، لكنها قلصت هذا الفارق بتميزها و تفوقها الدراسي. التحقت فيما بعد بمتوسطة المثني للبنات في منطقته الباب المعظم، و اكملت دراستها الثانوية في الإعدادية المركزية في شارع الجمهورية،

و لم تستمر بالدراسة الجامعية فيما بعد بسبب ظروف أسرهما المالية. لقد بدأ نضوجها الأدبي مبكراً بكتابة القصيدة العمودية، حيث كان أبوها شاعراً شعبياً لكنه لم ينشر قصائده. و لم تكن روائيتها في طفولتها تحب قصص الأطفال، بل كانت موهبتها أهلتها لنيل الجائزة الأولى في الشعر بعد أن شجعتها مدرستها الشاعرة المعروفة لميعة عباس عمارة على المشاركة في المسابقة التي نظمتها وزارة التربية لثانويات بغداد من البنين و البنات. و في عام ١٩٩٣م فجرت الرواية موهبتها النثرية، حيث أصدرت مجموعتها القصصية الأولى بعنوان (اعتذر نيابة عنك)، ثم مجموعتها الثانية (قاب قوسين مني، ١٩٩٨)، (تلك قضية أخرى، ١٩٩٩)، روايات (بنت الخان، ٢٠٠١) و (مابعدالحب، ٢٠٠٣)، (في الطريق إليهم، ٢٠٠٤)، (زجاج الوقت، ٢٠٠٦)، (مطرا الله ٢٠٠٨)، (نساء العتبات، ٢٠١٠) و (ان تحاف، ٢٠١٢). فهديّة حسين هي من الروايات اللواتي صوّرن عن كتب حيثيات الحرب و تداعياتها الخائفة والقاسية في المجتمع العراقي، فتتناول روايتها الواقع العراقي في ظل الحروب المختلفة التي عصفت به، ابتداءً بالحرب العراقية الإيرانية عام ١٩٨٠م، و مروراً بحرب الكويت عام ١٩٩١م و الانتفاضة الشعبانية و الحرب الثالثة (سقوط النظام والاحتلال) ٢٠٠٣ و انتهاءً بالحرب الأهلية (الطائفية) التي شهدتها العراق و ماتبعها من أحداث و دمار و تهميش. و سجّلت في رواياتها صرخة و إدانة لكل ما خلفته الحروب من القتل، و النفي، و التهجير، و التشريد، و الإبادة، و التعنصر البغيض للدين و القومية و الطائفية و العنف. فقد كانت مضامينها الروائية تصب في الاتجاه الواقعي، لذلك سلطت الرواية هدية حسين الضوء على حقبة زمنية مهمة من تاريخ العراق ما بين ١٩٨٠ إلى ٢٠٠٣م، ثم تتوالى الأحداث الدامية بعد ذلك. «فإن علاقة الكاتب بالتاريخ ليس معزولاً، إنها عنصر مهم، تشكل علاقته بالواقع» (لعيبي، ٢٠١١: ١٤٠) و كذلك «ليست علاقة الرواية بالحرب علاقة عابرة أو سطحية، بل هي علاقة وثيقة و طيدة و عميقة» (سويدان، ٢٠٠٧: ١١). الرواية هدية حسين هي زوجة الكاتب و القاص عبدالستار ناصر و تعيش مغتربة في كندا بعيداً عن و طنّها العراق (الغائب، ٢٠٠٤: ٥).

٢-١. رواية بنت الخان (٢٠٠١)

كُتبت هذه الرواية قبل سقوط النظام، و رغم ذلك يستطيع القاريء أن يرى ما فيها من جسارة و شجاعة بوضوح، ربما يعود السبب إلى أن الكاتبة كانت و مازالت تعيش بعيدة عن

القمع و الكبت الذي كان موجوداً في العراق علماً بأن الكثير من الروائيين قد كتبوا بحذر برغم ابتعادهم عن العراق و النظام الديكتاتوري.

قد صورت رواية بنت الخان معاناة الإنسان بسبب حرب العراق ضد إيران، و أعربت عن رفضها لهذه الحرب التي وقعت سنة ١٩٨٠م، و استمرت ثماني سنوات بسبب سياسة صدام حسين الهوجاء، و بيّنت لنا جانباً مهماً من حياة الناس و رفضهم للحروب و إدانتهم لها، فرَوّت على لسان شخصياتها ما يجول في دواخلها من هذه الأحاسيس، فنسمع مثلاً من ابورنا، إحدى شخصيات الرواية يقول: «يبدو أن الغيوم ستصبح ثقيلة و داكنة على الجميع فقد سمعت أخباراً لاتسر. هل تظنين أن الحرب ستقع؟» فلم تُعِرّ محاسن بطلة الرواية لما سمعته اهتماماً و تقول في داخلها: «قد تعودنا على دق الطبول بمناسبة و بدون مناسبة.» (حسين، ٢٠٠١: ٦٨) و نسمع صوت احتجاج هدية حسين في مكان آخر على لسان محاسن تقول: «حياتنا اصبحت معلقة بتقارير الحرب المزيفة» (المصدر نفسه: ٧٣). وبدأت هذه الحرب، فكان الناس على أمل أن تنتهي خلال أيام أو أسابيع، و لكن: «دخلت الحرب شهرها السادس و ليس ثمة ضوء يعلن عن نهايتها. الأخبار السيئة تصل البيوت من دون حاجة إلى تزويق.» و بعد إطالة هذه الحرب لمدة سنوات عديدة «صدمت الحرب كل من توقع أنها ستنتهي خلال أيام و أسابيع فإذا بما تمتد سنة إثر سنة السؤال عن انتهاء الحرب يحرق الشفتين، يدمي القلب، يجرح الإحساس و يفضي إلى أحجية لا أحد يفك طلاسمها».

كان لسنين الحرب الطويلة تأثيراتها السلبية على روح الإنسان و يتحول إلى احتجاج دون شك، فنحن نسمع صوت محاسن تقول بغضب عارم: «الحرب امرأة عاهرة لعبت دورها بإتقان، شطبت على سنوات اعمارنا و احرقتها، امتصتنا و سلبتنا احلامنا دون أن ندري، لم يبق غير بعض الامنيات المنكسرة تذوب كما الشموع في صحن ايامنا، نسرب من خلالها اوجاعنا و نستسلم للخيبات...» (المصدر نفسه: ٧٢-٧٤).

ينتظر الناس في حالة الحزن و الخيبة انتهاء الحرب لكن «اخبار الحرب التي لاتنتهي جارحة و مقرفة.» (المصدر نفسه: ١٢٣) و «صور المعارك تعرض و جبتها المسائية عبر شاشة التلفاز، حث متفحمة... انصاف جنود... اشلاء... وجوه معفرة بالتراب و الذباب... آليات و صفائح و مخلفات قنابل... مدافع و شاحنات و اكداش عتاد و اكياس رمل... أسري و أمهات يمتن كل يوم بانتظار ابناء لاعودة لهم اوابناء معوقين...» (المصدر نفسه: ١٣١)، لكن من

الذي يفكر بانتهائها والحدّ منها؟ فقد بدأت حتى الأمم المتحدة تتفرج كيف يُقتل الأبرياء و كيف يُتيم الأطفال «متي ستنتهي الحرب؟ سؤال بدأ الناس يتندرون به، فالعالم مشغول بابتكاراته و مباحجه و ثوراته العلمية و اتفاقاته و توحيد شعوبه و اقتصادياته... العالم مشغول جداً، ليس بمقدوره أن يتابع حرباً تستمر سنوات... ليس بمقدور أحد - غيرنا نحن المحروقين بنار الحرب - أن يسمم حياته...» (المصدر نفسه: ٩٠).

فقد يعلو صراخ الناس في هذه الرواية فيصل إلى مرحلة يقفون أمام الجيش الشعبي دون خوف، فتقول أم سلوان التي قُتل ولدها بتهمة الهروب من الحرب بصوت يشبه الصراخ: «لماذا تشعلون النار كلما خمدت؟ ... مللنا البيانات و الأغاني السمجة... ابجثوا عن وسيلة تعيد لنا أبناءنا». و عندما لا ينفخ الصراخ و لا يوجد مغيثاً إلا الله، يتهل الإنسان إليه و يشكو فنسمع سلوان يقول لأمه: «ابتهلي إلى الله في صلاتك أن تنتهي الحرب» (المصدر نفسه: ٣٣ و ٣٤).

قد قضى ابورنا بقهر و إجبار، سنين جمّة من حياته في ساحات القتال، و وصل إلى مرحلة المقت و القرف و إلى طريق مسدود من هذه الأوضاع، و أخيراً جاؤوا بجسده إلى زوجته في قمة الذل و الاستهانة بتهمة الانتحار! فقد بدى هذا الدهول على وجه زوجته إلى الأبد: هل انتحر زوجها حقاً من شدة الألم و العذاب و الكآبة و الابتعاد عنهم؟ أو قُتل في جبهة القتال؟ لكنها تستدرك و تقول: «حتى و إن كان قد انتحر فإن من أشعل الحرب هو السبب... هل كان سيقتل نفسه لو لم تقم الحرب؟» (المصدر نفسه: ١٤١).

ونرى سلوان شخصية أخرى في هذه الرواية لم يكن أقلّ معاناة من ابورنا، فهو قضى أيضاً سنين حياته في هذه الحرب بظلم السلطة و قسرها؛ و أجّل الزواج من خطيبته نسرين حتى تنتهي الحرب و قال لها: «لا أريدك أن تترلمي أو أن تقضي عمرك مع زوج كسيح» (المصدر نفسه: ١٣٥). و لم يخطأ في قراره، فقد قتل بتهمة الهروب من ساحات القتال، و قبل إعدامه قال متحدثاً مع نفسه: «يا الله... كيف تسمح لهم أن يقتلوا جندياً انتزعوه من بين أحلامه و مضوا به إلى حرب ما كان هو السبب في إشعالها؟» (المصدر نفسه: ١٦٧). حرب تلتهم جيلاً لا يعيش عمره و لا ينطلق في تحقيق رغباته، يسيسونه رغماً عنه، يعبؤونه بالشعارات و يبعثون به إلى الحرب. و عندما يتطلع إلى عيون هؤلاء الشباب يرى فيهم شيئاً منطفئاً كأنهم خشب مسندة، و ليسوا بشراً ينبضون بزهو الحياة و فيضها، هم مجرد هياكل منقادة إلى الجهول، و آلة بيد العاقب المجنح بفرعونيته الطاغية.

قد اعترفت هدية حسين في هذه الرواية بنجاح السلطة في الإمساك بحياة الإنسان، فهي التي تمنحه إياها، و هي التي تقرر انهائها؛ و حولت الناس في البلد إلى مجموعة من البشر، تتحرك على وفق رغباتها، و تنتظر موتها في كل لحظة.

وبعد مضي ثلاث سنوات من هذه الحرب التي دامت ثماني سنوات، بدأ صدام حسين يفكر بإشعال حرب جديدة، فشنّ حرباً على الكويت عاصفة الصحراء عام ١٩٩١م. و فيما يتعلق بذلك نرى سؤالاً يتكرر في اكثر روايات هدية حسين، و هو: ما هي ضرورة هذه الحرب الجديدة؟ إننا نشاهد في الصفحات الأخيرة لرواية بنت الخان إدانة و اضحة لحرب العراق ضد الكويت: «الف مرة ينبثق السؤال في رؤوس الجنود العراقيين المفجوعين الضائعين، هل كانت الحرب الثانية ضرورة؟» و هل كانت هذه الحرب ضرورة حقاً؟! حرب «تمزق الآلاف فيها و تثاروا على رمال الصحراء و في الوديان و داخل الخنادق و خلف السواتر و في فضاء المعارك، فلم يتسنّ لأحد أن يلتم جذاذاتهم... النار صارت كفنهم و الضواري أخذت ماتبقى من أجسادهم» (المصدر نفسه: ١٧٦، ١٤٨). فقد اتضح لنا من خلال رواية بنت الخان أزمة الإنسان العراقي الذي أصبح ضحية سياسات نظام لم يجلب سوى الويلات و الحروب لأبناء شعبه، نظام قد أيقن أنه لا يمكن استمراره و لا تثبيت أركان عرشه من دون الاعتماد على القمع و الاستبداد و المعارك و الحروب.

٢-٢. رواية مابعد الحب (٢٠٠٣)

قامت هدية حسين بتأليف رواية مابعد الحب في عام سقوط نظام البعث، و ألقت الضوء على موضوع حرب العراق و الكويت و تداعياته على المجتمع العراقي، بل على الإنسان ولو كان في الجبهة الأخرى. و تطرقت حول موضوع الانتفاضة الشعبانية التي كانت نتيجة الأوضاع الراهنة بعد هذه الحرب.

أدّى تصرف الحاكم المتسرع في اجتياح الكويت إلى زهق أرواح كثيرة و بريئة من جنود الجهتين و إلحاق المهانة بكرامة الإنسان، إضافة إلى تدخل القوات الأجنبية لتدمير شعب بأكمله من أجل إسقاط الحاكم! و يرى الناقد (نصر حامد أبوزيد) أن القيادة العراقية قد «أخطأت في حساباتها و قامت بعدد من الاستفزازات، ضاربة بقرارات الأمم المتحدة عرض الحائط، و الخطيئة هوما فعلته أمريكا بعدوانها السافر و المريع على الأراضي العراقية» (أبوزيد، ٢٠٠٠: ٤٩).

تذكر هدية حسين في رواية «ما بعد الحب» حرب الكويت على لسان أمير أحد أبطال الرواية، ضمن مذكراته التي كتبها إلى هدى، فهو أحد الجنود الذين اجتاحتها الكويت بأمر من القائد السياسي للسلطة في العراق. فقد امتزج صوت الكاتبة بصوت الأمير الذي لم يمنحه الاسم إلا إحساساً بالخذلان، للتعبير عن عذاب الرجولة المنكسرة و المستلبه التي تمثلت بعودة الجيش العراقي من الكويت مشياً على الأقدام، إثر انسحاب الجيش العراقي منها بقرار متأخر من الحاكم العراقي فهو:

«عائد من الموت، عائد من كرات النار، من الشظايا، من حرائق العجلات، من القنابل العنقودية، عائد من أرتال الموت المتنقل حين أصبحت أرتال العجلات المنسحبة هدفاً شهياً للطائرات المغيرة، فاحترقت العجلات و الأحساد... قتلى ممزقين، جرحى لم تتوقف عندهم يد تمتد بالعون، و ظلوا ساهين يتطلعون صوب الأفق بانتظار موتهم، و هؤلاء أوفر حظاً من الذين داستهم العجلات في الليل... و جعلتهم عبارة عن قطع متجلدة من القماش و الأنسجة الحية و العظام، عائد من كل هذه الفوضى المرعبة» (حسين، ٢٠٠٣: ١٤٠).

فالجيش العراقي في حرب الكويت كان في حالة يرثى لها، فالسلطة الحاكمة كانت تجبرهم إلى غزو أرض الكويت على الرغم من القصف الجوي لقوات التحالف الكثيف و الاسلحة المتطورة التي استخدمت في هذه الحرب و من كان يتراجع من الجنود العراقيين، لا يقل مصيره عما يراه و يواجهه في الحرب ضد قوات التحالف، فمن يحاول الهرب من هذا الجحيم القاتل فمصيره الإعدام و القتل المباشر في الجبهة!

قد داهم فكر هدية حسين سؤالاً آخر فتطرده على لسان هدى في هذه الرواية: «مئة ساعة من قلق و رعب تحت أعنف قصف لثلاثين دولة... صواريخ... طائرات... قاذفات... قنابل ذكية... إنه الجحيم و العراقيون الحطب... قصف مركز... قصف عشوائي... هروب جماعي لمختلف الرتب... غضب عارم... سؤال لا يجد له جواباً... لماذا تعنت الرئيس اذا كان يعرف أنه سينسحب من الكويت؟... سؤال مجتته الأفواه و بصقته قبل قيامة الحرب» (المصدر نفسه: ٧٩).

صوّرت الكاتبة رفض الحرب و حق الإنسان في الحياة في شخصية الأمير بنظرة ثاقبة و شاملة لا يقتصر على وعي الشخصية بحقها في الحياة فقط، بل بوعيها بحق غيرها كذلك. كان الأمير رافضاً سياسة الحروب التي سحقت أرواح كثير من الجنود العراقيين، و كان مدركاً لقيمة حياة الإنسان الذي يواجهه مكرهاً في الجبهة الأخرى، و أحاط بحجم الظلم الواقع

عليهم، ليتحتم الحاكم ببطشه على صدر الناس، فسحقوا في سبيل ذلك زهوة عمر الشباب في الحروب التي لاتنتهي، و انتفت المفاهيم التي كانت سائدة في حق الإنسان في حياة كريمة، و ليس لأحد أن يتدخل فيها، و تحوّل القتل إلى رغبة في إهزاء من يقف أمام خيارات السلطة، فيقول الأمير: «أحلى سنوات العمر ضاعت في الحروب عر كناها بالخوف و بالشجاعة معاً...، لأننا مجبرون على ذلك، و لكنها شجاعة خالية من الشهامة... أن تقتل إنساناً فأنت مجرد من إنسانيتك... إنساناً مثلك يتأرجح على خيط الحياة و الموت، و يصوب إليك السلاح حفاظاً على حياته كما تفعل أنت» (المصدر نفسه: ٧٠). و يقول أمير إلى هدى في مكان آخر من الرواية: «دخلت معارك شرسة كنت أتمنى فيها الموت قبل أن اضطر لإطلاق رصاصة على جندي مثلي له أم و أب و أحلام تنتظره» (المصدر نفسه: ١٣٤).

ونرى أيضاً فكرة رفض الحرب و إدراك حق الإنسان في الحياة في هذه الرواية عند يوسف خطيب هدى، الذي رفض الزواج منها قائلاً: «هل تريد أن أنجب حطبا للحروب؟» فهو «تداهمه الكابة لمجرد تفكره بالعدد الذي يمكن قد أصابه من الجنود في الطرف الآخر» (المصدر نفسه: ٦٩). قد سئم يوسف من الحروب و أصابته كآبة حادة فيقول لهدى: «ما أصعب أن نرى إنساناً من لحم و دم... يضحك و يغني و يشج، يستذكر و يتألم و يحلم، ثم فجأة يتناثر قطعاً محترقة فلا الرأس رأس و لا القلب قلب... دم مسفوح أو جسم متفحم أو أشلاء لايمكن لـمها» (المصدر نفسه: ٦٩). و تطرقت هدية حسين في هذه الرواية لقضية انتفاضة عام ١٩٩١م ضد النظام الحاكم، فالانتفاضة حدث تاريخي تعتبر من آثار الحرب و تداعياتها، و لم تمر دون أن ترصدها الأقلام. حدثت الانتفاضة بعد هزيمة الجيش العراقي من الكويت، عندما كان الناس يشتعلون غيظاً ضد الحاكم كاليركان. «كان الشعور بالعار جماعياً بين الجيش و الشعب الذي وجد نفسه محشوراً في زاوية خانقة لانجاة منها إلا بالانتفاضة على من أوصله إلى هذا الطريق المسدود... تحرك الشعب الأعزل تدفعه حالة اليأس و العزلة و الهزيمة المرّة و الظلم و الانكسار و اتساع الهوة بينه و بين حاكمه» (المصدر نفسه: ٨٠).

قامت السلطة الحاكمة بمساعدة أمريكا بأبشع الانتهاكات لحقوق الإنسان، و ذلك بمصادرة حق الحياة أثناء قمعها و حصد أرواح كثير من البشر؛ إذ أصبحت الجثث منتشرة في المدن العراقية، و منعت السلطة دفنهم ليكونوا عبرة لمن يفكر في أن يحتج يوماً عليها.

انطلقت شرارة الانتفاضة من البصرة، و قد لقيت هذه المدينة ما لقيت من السلطة، «دكت البيوت على ساكنيها، فهرب من هرب إلى بغداد و كربلاء و نجف معتقدين أن العاصمة و مدن الأئمة ستنجو من الكارثة!» و أخطأوا في حساباتهم، لأنه لم تُوضع حدودٌ للظلم و القمع لمثل هذا النظام السفاك. «أصبحت كربلاء مدينة أشباح... فضاء مزحوم بالروائح النتنة، و رعب يهبط على البيوت، و شوارع خالية إلا من الدبابات، و رجال النظام المسلحين، و جثث متروكة لا أحد يجرؤ على دفنها... الدفن ممنوع بأمر السلطة حتى يصبحوا عبرة للآخرين... هكذا ظلت الجثث أياماً تشوّهت و تفسّخت، لتدفن بعد ذلك بمقابر جماعية لا أحد يعرف مكانها... هذا ما حدث أيضاً في باقي المحافظات» (المصدر نفسه: ٤٨، ٨١، ٨٢).

نادية هي شخصية أخرى في رواية ما بعد الحب حرق سنين عمرها بانتظار حبيبها أمير الذي ضاع منها في أوضاع الانتفاضة المتدهورة، فكانت نهايتها أن تموت بعيدة عن الوطن و الحبيب في الأردن مليئة بالحزن و الغضب و الاحتجاج ضد النظام... نظام أعدم أخيها الوحيد، و قتل أمها، و سلب منها الحبيب فتقول: «حقدي على هذا النظام الذي جرّ الويلات و الحروب على البلد، و أطفأ جذوة الحياة فينا» (المصدر نفسه: ٢٧) و قد رفضت السفارة العراقية في الأردن نقل جثمانها إلى العراق، فتمتلئ قلب صديقتها هدى غيظاً من هذا الأمر فتقول: «هل من حق الحاكم أن يحكم قبضته حتى على الأموات بعد أن سلب منهم متعة الحياة؟ ما الذي تفعله جثة لاحراك فيها؟ هل يمكنها مثلاً أن تطالب بالتعويض عن سنين أحرقتها الحروب؟ ثم لماذا يخشى الحاكم من جثث ما عادت تحمل أي طموح و ليس لها حق الاعتراض على ما آلت إليه أو القدرة على المقاومة؟» (المصدر نفسه: ٣٧).

قد أثير حادثة الانتفاضة على مصير شخصيات هذه الرواية، فعائلة نادية التي كانت ساكنة في البصرة في تلك الفترة، سُجنوا ثلاثة أيام في بيتهم و قُتل عمّها في هذه الحادثة، و سُجن أخيها لتدخله في الأحداث، و عُدم بعد هروبه من السجن فتقول نادية: «تناثرت الجثث... و مُنعنا من الخروج حتى من البيت - بعد ان سيطر رجال النظام على الأمن - بقينا ثلاثة أيام محاصرين خلف جدران بيوتنا». كان عم نادية يريد سحب جثة سقطت قرب عتبة دارهم «نادوا عليهم: ممنوع دفن الجثث دعوا الكلاب تشبع منها... كلكم حثالة و سنقتص منكم» (المصدر نفسه: ٧٤).

قمع النظام بمساعدة أمريكا هذه الانتفاضة بأبشع آليات العنف، و «سقطت المحافظات واحدة تلو الأخرى ... يتذكر كل من عاش أحداث الانتفاضة، كيف حامت المروحيات فوق المدينة؟ و دكّت البيوت و المعامل و المحال التجارية؟ و دخلت الدبابات شوارع المدينة؟... حرقت البساتين على جانبي الطريق لئلا يلتجأ إليها أحد... و أما الذين هربوا من الموت باتجاه الطريق الخارجية و أغلّبهم من العوائل، فقد حاصرتهم الطائرات، و صبت عليهم النفط الأبيض قبل أن تلقي قذائفها النارية و تحيلهم إلى رماد، و كانت الطائرات الأمريكية في تلك الأثناء تحوم في سماء المدينة متفرجة على واقعة كربلاء الجديدة، حيث يباد الأولاد الصغار و الأمهات و المسنّون، أما من وقعوا في قبضة النظام فقد نقلوا في عربات عسكرية و سيارات شرطة إلى جهات مجهولة لم يعودوا بعدها ابداً» (المصدر نفسه: ٨١).

فتنتهي رواية ما بعد الحب، فهي حكاية «بلد الحروب التي لا تنتهي»، «بلد تفرخ الحرب فيه حروباً... بلد لا تنتهي التدريبات العسكرية فيه»، «التدريبات التي أكلت أعمار الشباب، و قضت أحلامهم». و حاكم هذا البلد «لاوقت لديه... إنه مشغول دوماً، و مشغول بالتخطيط للحروب» (المصدر نفسه: ١٣، ٢٤، ٣٨، ٥٦).

٢-٣. رواية في الطريق إليهم (٢٠٠٤)

لقد شعرت الروائية هدية حسين بـ «أنّ الأحياء لم يستطيعوا قول كلمتهم بسبب نظام لم يحترم الأحياء و لا الأموات، و لأن الحرية هي ما ينقص الأحياء في بلدانا العربية، فقد لجأت للأموات الذين تخلصوا من سياط جلاديهم» (ابوهيحاء، ٢٠١٠). كتبت هدية حسين في هذه الرواية عن الروح التي تشظت بفعل الحروب لتدخلنا في عالم الأموات و نظرتهم إلى الحروب، و كيف نال الأموات نصيبهم من الدمار كما ناله الأحياء. فالحروب هي دمارٌ دائمٌ تُفقد الناس رغباتهم، و تجعلهم محبطين ينظرون إلى الغد بعين ملؤها الدمع، و شبح الموت يخلق في سماء طموحاتهم المهاجرة إلى أفق مجهول.

بطلة الرواية هي أمل، الطفلة المتوفاة التي فارقت الحياة إلا أن روحها بقيت تتردد على بيت أهلها، لتروي لنا أهوال حرب الكويت ١٩٩١م، و هجوم طائرات الدول الكبرى (٣٣ دولة) تحت قبة الأمم المتحدة كحل لأخطاء ارتكبتها السلطة، فلم يسلم منها حتى الموتى، فتُقصف و تعذب أرواحهم حتى أصبح الموتى يخافون أن يموتوا ثانية، إذ تقول: «في الجانب الشمالي من

المقبرة سقطت عدة قذائف، و أحدثت حفرة عميقة، انقلبت القبور و لفظت الأرض أحشاء الموتى من العظام و الجماجم ... سمعت صوت فراس مرتجفاً:

- ماذا يحدث؟ هل جاء يوم القيامة؟

فقلت له: يبدو أن هذه الحرب أقسى و أعنف.

سألني مرعوباً: هل سنموت ثانية؟!...» (حسين، ٢٠٠٤: ٧٣-٧٤).

إن خسائر الحرب لا تكون حسب طول مدتها و إنما بعنفها و بشاعتها، و إن كانت مدة هذه الحرب (٤٢ يوماً)، لكنها كانت أشد و أبشع من الحرب الأولى، إذ لم يسلم منها حتى الناس العزل. و قد اعتمدت هذه الحرب على التكنولوجيا الحديثة، فالدمار امتد إلى كل مكان و تركت الحرب بصمتها على أبسط الأشياء.

نسمع احتجاجات الموتى و إدانة النظام و اتباعه في هذه الرواية من قسوة ما يحدث للأموات، لكن «احتجاجها ظل تحت طيات المقبرة!» و كيف يسمع احتجاج الأموات عندما لا يصل صوت الأحياء إلى مسامع أصحاب الشر؟!!

استخدمت هدية حسين أسلوب السخرية و الاستهزاء أحياناً لبيان هذا الاحتجاج: «بعد اثنين و اربعين يوماً... توقفت الحرب المجنونة، و خرج رئيس البلاد من مخبئه يعلن اندحار التحالف، و يدعي النصر!» (المصدر نفسه: ٧٦) و أين البلاد من هذا النصر!

كان قلب الشعب يمتلئ قبحاً لسياسة صدام و أذنا به، و لم يؤيده إلا من تاجروا إنسانيتهم، و باعوا ضميرهم للحصول على الجاه و المقام؛ فتغيرت عندهم القيم، و أصبحت الغرائز هي التي تتحكم بسلوكهم الأخلاقي، و منهم غازي، أحد شخصيات الرواية، و هو الذي «ارتكب ابشع الفظائع... و صار يشرف بنفسه على الإعدامات دون أن يفتح ملف أحد من أولئك البائسين الذين رمتهم أقدارهم إلى الدهاليز السرية... صار... يتلذذ بتعذيب الضحية قبل ان تلفظ آخر أنفاسها». و نور، أحد الضحايا في الرواية، قد لاقى أعنف التعذيبات و أشدها، و أخيراً مات مسموماً بأيدي النظام و زمريته. استطاع نور أن يللم ما تبقى لديه من شجاعة، و يقول لجلاده: «عار على الحياة أن يكون أمثالك في سجل الإنسانية». خوف... قمع... كبت... هذا كله لا يسمح لأحد أن يتجرأ على الاحتجاج. يقول أحد الآباء أمام رجال المليشيات: «لابأس، سيصبح أولادي رجالاً، فهم ثروة البلد. لكنه في السر يكظم غيظه و وجعه و يردد: أبناؤنا حطبت الحروب القادمة» (المصدر نفسه: ٨٤، ١٠٩).

و ١١٩). الحروب تشتعل برغبة شخص واحد، و لا تنتهي إلا أن «يعثر هذا الحاكم على ضميره الذي ضاع منه». لكن «الحاكم المبجل فأصبح أكثر عجرفة و فظاظة... كلما ازدادت مصائب الناس قويت أرجل كرسيه». (المصدر نفسه: ٨٥ و ١٠٨) و لم يستطع أحد أن يعيد له وجدانه الضائع منه.

جسدت رواية «في الطريق إليهم» محنة الإنسان الذي لا يستطيع المطالبة بحقوقه، و تحدثت عن سلب الموتى حقوقهم التي لا تحتاج إلى موثيق دولية أو معاهدات، كل ما يحتاجه أولئك فسحة من النزاهة يرقدون تحتها بأمان، لكن هذا الأمر أصبح بعيد المنال في بلد لم يفقه سوى لغة الحروب.

٢-٤. رواية مطر الله (٢٠٠٨)

لم تكن الحرب هي وحدها التي انهكت العراق و شعبه المثقل بالهموم الجسام و المصائب الموجعة، بل ما أفرزته سنوات الحرب من ويلات و تداعيات و تمهيش أدت إلى مرحلة جديدة بعد الحرب لم يعهدها العراق من قبل، و هي ظاهرة القتل في الشوارع عن طريق إشاعات مغرضة و مدسوسة بين أبناء الشعب من خلال الحرب الطائفية، حيث راح ضحيتها الكثير من أبناء الشعب العراقي، و كانت تحصد عشوائياً الرجال و النساء و الاطفال و الشيوخ، لا فرق بين الغني و الفقير، فكان أفضل ما يطلق عليها مرحلة (القتل بالجم). لقد جاءت هذه المرحلة بعد احتلال القوات الأمريكية للعراق مباشرة، و لا يخفى ما للقوات الأمريكية من دور فعال في تأجيحها و قطف ثمارها للهيمنة على مقدرات الشعب و الاستحواذ عليه (الحيدري، ٢٠٠٧).

وفي هذه الرواية سجلت هدية حسين بدقة المرحلة العصبية التي مرت بها، و دوت «ظاهرة القتل لمجرد اللهو و اللعب و التسلية من قبل أشخاص ملثمين يفعلون أفاعيلهم و جرائمهم في الظلام و في الزوايا بعيداً عن النور و عيون الناس»، و «صارت رؤوس الناس تقطع كما تقطع رقاب النعاج و الخرفان و الدجاج، و ترمى جثثهم على قارعة الطريق أو على المزابل كشيء لا قيمة له، تنفجر العربات و السيارات و الدراجات، فتقتل ما تقتل، و يأتي نوع من البشر غربيي المذاهب و الأطوار، يفعلون بالناس ما لم تفعله الغزاة في الأزمنة الغابرة، يفجرون أنفسهم بأحزمة ناسفة وسط حشود الفقراء في الأسواق و مساطر العمال و المدارس و المستشفيات و سرادقات العزاء و الأعراس متوهمين أنهم سيذهبون إلى جنة الرب التي لا أدري بأية سماء تختبئ» (حسين، ٢٠٠٨: ٤٥ و ١٠٩). لم يألّف المجتمع العراقي هذه الظاهرة قبل هذا الوقت، فهي

وليدة تراكمات الحروب و انعدام الأمان و تزعزع المبادئ و القيم لدى البعض ممن هزتهم التراكمات، و خلقت منهم مرتعاً للجريمة و السرقة و التصيد في الماء العكر، حيث بدأت عصابات مجهولة الهوية بتقتيل الناس و إرهابهم باسم الدين و الشرع و لم يسلم منها أحد، حتى الأطفال العزل، فلم تكن هذه الرواية سوى صرخة احتجاج تجلجل الأرض لتمنع استمرار القتل و العنف اللذين آل إليهما مصير الانسان، و تتعالى الصرخات ضد القتل في (عصر المفخحات) - كما تصفه هدية حسين - إذ يعبر رجل مسن عن أزمة الموت في هذا العصر الذي أصبح عصر القتل بامتياز، فيقول:

«المشكلة يا جماعة إننا كنا في الماضي نعرف عدواً واحداً يشعل الحروب، و يأخذنا حطباً لها، و يستل الأبناء، و يخفيهم في سراديب الأمن، أو يدفعهم في مقابر جماعية في الصحراء، أما الآن يا جماعة فلا ندري: من أين انبتق كل هؤلاء الأعداء؟ و لماذا يقتلون الأبرياء؟... هل يعقل أن يقتل الكناسون و صباغو الاحذية و الباعة المتجولون و بائعو الشاي و الخلاقون و عمال البناء و أصحاب البسطات و علماء البلد و طلاب الجامعات و الرياضيون و الفنانون؟ بأي عرف اودين يحدث هذا؟» (المصدر نفسه: ٢٨، ١٠٦).

وتشير الروائية إلى انقسام عصابات الموت إلى طوائف، و تعدد الموت بأشكاله و أطيافه، و هو قتل مجاني بلا عداء يوزع على بني البشر لانتمائهم و لهويتهم و لاعتقادهم الديني أو السياسي، بل حتى لأسمائهم، لكن ما يثير الاستغراب أن يصبح القتل مهنة و تسلية لبعض بني البشر. فهذا الراوي يخاطب السيد مهرا بطل الرواية، متنبئاً بمصيره في عصر القتل المجاني:

«أنت يا سيد مهرا ستمضي ... إلى قصرك، لكنك أبداً لن تصل، فالملثمون يكمنون في الزوايا، و على بعد امتار قليلة ستكون هائتك، و لا راداً لما سيكون... هم لا يعرفونك، و ليس بينك و بينهم تأر. و اسم مهرا لا ينتمي لطائفة معينة ليثير فيهم نكرة التعصب الذي عمّ البلاد، لكنهم يتسلون بموتك، صار القتل مهنتهم و تسليتهم الوحيدة، سيقتلونك شرّاً قتلة، يفرغون أمشاطاً كثيرة من رصاصهم المخبون على صدرك و وجهك المتغضن، و لن يجد أحد من المارة ما يستدلّ به عليك، كأنك ما جئت إلى هذه الدنيا أو كأنك مررت بها مروراً خاطفاً، سيموت معك خلق كثير، و لا عاصم لهم في هذا الزمن الذي لا بوصلة له، يتناثرون مثل دمي أو أشلاء... على مقربة من جثتك المخربة، و سيمضي الجميع إلى نهايات لم يرسمها الرب لهم، بل رُسمت في أقبية الظلام» (المصدر نفسه: ١٠٩).

يكتسح الموت في رواية «مطرالله» أرض العراق، ليفضح المؤامرة التي تجري من وراء ظهر ملك الموت، «فهو أبداً لم يصدق بأنه يقبض أرواح المئات في ثوان معدودة و في أماكن متعددة، مثلما حدث على جسر الأئمة، و في المحاويل، و سوق الغزل، و الجامعة المستنصرية،

و الأسواق الشعبية في بغداد و النجف و كربلاء و الأنبار و السماوة و الموصل و البصره و الكوت و الناصرية ...، و لا يمكن؛ صرخ عزرائيل: أشم رائحة مؤامرة، ما الذي يجري من و راء ظهري أيها الرب؟ و لا أحد يجيب، اللصوص منشغلون بصناعة الموت، المعدات جاهزة و الأوامر نافذة، و كل الأوقات مباحة للقتل...» (المصدر نفسه: ١١٠ - ١١١). استعان هؤلاء الأعداء الجدد مجهولو الهوية بآليات الموت المجاني في أعنف صورها، و لجؤوا إلى أساليب الحاكم السابق في القتل، بل تفوقوا عليها، و لا يتأخرون في تصفية الأشخاص رمياً بالرصاص أو شنقاً أو تسمماً بالطعام، «أو الذبح و التعذيب و الحرق و التشويه و قطع الرأس و الخطف.» (للمزيد انظر: الحيدري، ٢٠٠٧) و نتيجة لهذه الفوضى «احترقت مكتبات، و سرقت آثار، نزلت مليشيات إلى الشوارع، و هجرت عوائل، اختفى الأبناء، و اختطف الكثير من الرجال و النساء في وضح النهار» (حسين، ٢٠٠٨: ١٠٦).

يوجه محمد محمد الحيدري أصعب الاتهام في كتابه (الطائفية في العراق) إلى أمريكا، و يعتبرها هي السبب في تأجيج النعرات الطائفية في العراق، و يضيف «مادام التكفيريون موجودين، و عدم تخلي البعثيين عن منهجهم الطائفي فإن الاحتقان الطائفي سيستمر» (الحيدري، ٢٠٠٧: ٧). قد أدانت الرواية هدية حسين و بشدة كل أشكال العنف الذي شهده العراق من دون تحيز منها إلى جهة أو تيار دون آخر، حيث إن الحرب و القتل و السلب يأكل الأخضر و اليابس، دون تمييز منه بين طائفة أو قومية أو عرق، فهي حرب ضد الإنسانية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، و قد أرّخت لوقائع و أحداث حقيقية حدثت على أرض الواقع و أسهمت لإيقاف مهزلة القتل المجاني.

٢-٥. رواية نساء العتبات (٢٠١٠)

«أمّ الكوارث» و «أمّ المهالك» هي أسماء أخرى للحرب الثالثة التي بدأت بدخول القوات الأمريكية في العراق لإسقاط النظام السابق في عام ٢٠٠٣ م. «بعد أن تمكنت أمريكا من تحديد الملامح الأساسية لما تريد فعله في العراق منذ انتهاء حرب الكويت و تأسيسها كتلاً سياسية عرقية طائفية تليق بالمشروع! شرعت في التخطيط لإنهاء الدولة العراقية و اضمحلال وجودها» (الناهي، ٢٠١٣: ١٠٦).

«كان العراق يعاني من نظام تسلطي و قمعي ظالم، و الشعب العراقي كله يعاني من هذا التسلط و الاضطهاد، و هو ينتظر الخلاص من النظام. و لم يكن وارداً في ذهنية الشعب العراقي الاحتلال العسكري لوطنه من قبل قوى أجنبية أميرالية مثل (أمريكا) التي كانت

لعقود طويلة تعدّ دولة معادية لإرادة الشعوب و داعم (لإسرائيل)، الكيان الأكثر كرهاً و رفضاً في الفكر العربي الإسلامي، و هي التي دعمت كل أنظمة الاستبداد و القمع في العالم، بل مثلت الولايات المتحدة الأمريكية أبشع قيم الحداثة في الفكر الحديث من حرب فيتنام إلى دعم الأنظمة العنصرية في جنوب أفريقيا و إسرائيل إلى حصارها للشعب العراقي» (دوري، ٢٠١٠: ٤٢).

«والحقيقة التي يجب الإشاره إليها، أنه كان هناك منذ البداية عدم قبول من جميع القوى السياسية العراقية بفرض الاحتلال على العراق» (عبود، ٢٠١١: ٣٥) «لتفاجأ هذه القوى أو النخب السياسية بذهاب أمريكا إلى الأمم المتحدة لكي يعلنوا أن العراق محتل من أمريكا، فأخذت الدماء تسيل بعد أسابيع من إعلان سقوط بغداد لتصاب الجماهير بخيبة أمل انتستها فرحة سقوط الديكتاتورية» (الخيون، ٢٠١١: ٣٦). و قد عم البلاد «فوضى عارمة، لاسيما بعد ما قام به الاحتلال من تفكيك الدولة و مؤسساتها و إدارتها الرئيسية، و ما ترتب على ذلك من انفلات أمني و سرقة الذاكرة العراقية و تأجيج النهب و السلب (الفرهود) مما سبب انفجاراً للعنف و الارهاب» (حاتم، ٢٠٠٧: ٨).

وقد تجلّت أحداث هذه الحرب في رواية نساء العتبات بوضوح؛ فقد تسير هدية حسين بالفارئ لتأخذه عن طريق أمل، بطلة الرواية و الراوية لها، إلى رحلة القتل و الدمار منذ اشتعال هذه الحرب حتى نهايتها. فأمل تترك قصرها الشاهق في بغداد إلى عمان بعد سماع أخبار تعلن عن بداية الحرب؛ و قد تتابع أحداث الحرب من خلال سماعها لأخبار العراق السيئة في عمان، و تنقل لنا أخبار الحروب و تاريخ وقوعها الدقيق بأسلوب روائي مرموق، فتقول:

«جاءت (الحرب الثالثة) مثل غيمة داكنة ثقيلة الوطأة، بأصوات مرعبة نافرة و بشعر منكوش مثل (السعلوة) التي تتحدث عنها الأساطير، بشعة، مخيفة، قاهرة، تخطف الأرواح بمخالب شرسة و عيون تقدح شرراً... . جاءت تلك التي تروّع القلوب، و تفرع النفوس، و تفجع الأمهات و الآباء، و تهدد بالويل و الفناء، جاءت تضخ سمومها و غيظها و غيومها الملبدة بالشياطين، اندفعت هوجاء، عشيبة، مجنونة، جاءت الحرب الثالثة، غطت سماء ما بين النارين، و سحبت مني آخر خيط للأمل الذي لأحمل منه سوى الاسم. الفضائيات اشتعلت و تسابقت، أيها ترزخ أكبر كمية من أخبار النار على شاشاتها المتوهجة... أنباء... تسابق الصواريخ و القنابل... القنوات لاتكف عن تأكيد أن هذه الحرب لاتشبه سابقاتها، أرتجف و تصطك أسناني، أتساءل: كم ستدوم؟ كم ستقتل؟ كم ستهدم؟ و ما هي المسافة التي إليها حتى يمكننا العودة إلى ركب العالم؟» (حسين، ٢٠١٠: ٦٦).

تسمع أمل الأخبار عبر الفضائيات، و تمتلئ خوفاً و غضباً مما يحدث في العراق: «عمليات إنزال لجنود أمريكيين على الحدود... انفجارات في الموصل و الكركوك و ديالي و ذي قار و دهوك و بابل و البصرة و النجف و كربلاء و الكاظمية ... بغداد تشتعل بالقصف الجوي... معارك الناصرية هي الأعنف و الأكثر ضراوة... صارت جمار تثير أعصابي بأسئلتها و حر كاتها التي لا تهدأ:

- أين الرئيس مما يجري؟ لماذا لا يخرج إلى الناس؟... الله أعلم في أي ملجأ ... لعب بنا جولة...» (المصدر نفسه: ٧٠، ٦٩، ٧٣ و ٨٧). «البلد يحترق، كل شيء فيه يحترق، السماء و الفضاء و الأرض، الثكنات العسكرية و البيوت و مؤسسات الدولة و تجمعات الناس و الجسور و مخازن الاغذية و المستشفيات و البساتين و المدارس.» (المصدر نفسه: ٧٣) و لم يكتف المستعمر بإحراق المدينة و إشعالها، إنما سمح لنفسه استباحة الدماء و النساء و الأموال؛ و في هذه الأحوال «بلير يدعو العراقيين للثقة بالقوات الأمريكية، لأنها سوف لا تتخذهم كما فعلت في عام ١٩٩١م!!! تهن جمار (نديمة أمل) يدها استخفافاً!» (المصدر نفسه: ٨٤-٨٥) و تقول في مكان آخر من الرواية:

«كانت حرب الكويت أسوأها معروفة، فالعالم لا يقبل باحتلال الكويت، أما هذه فلا افهمها، هم يقولون بسبب أسلحة الدمار... أظنهم يريدون إسقاط الرئيس... لماذا لم يسقطوه في تلك العاصفه و يوفروا لنا كل هذه المصائب؟ لماذا خذل بوش شعبنا حين انتفض؟ و ماذا يريد بوش الثاني منا هذه المرة؟ ... فاجأتني بضحكة طويلة، فخلت أن المرأة جئت، إذ إن الموقف لا يحتمل الضحك... التفت إليها مندهشة و سألت:

- لماذا تضحكين؟

- أضحك على اسم (بوش)!! هل تعرفين ماذا تعني بوش بلهجتنا الجنوبية؟...

فأسرعت بالقول: - البوش هو الشيء الفارغ

ضحكت ثانية أكثر مما تستحقه الحالة، و سرت عدوى الضحك إلى، ثم قالت:

- الفارغ ابن الفارغ، يريد افراغنا من الحياة.» (المصدر نفسه: ٩٤-٩٥).

تستمر أمل بمتابعة الأخبار «صور جثث تغطي الشاشة، متفحمة و أخرى متقطعة، تعرض دون أدنى مراعاة لمشاعر المشاهدين». ثم يظهر المذيع مبتسماً و هو يقرأ إحصائية جديدة للقتلى، فتسائل أمل و الغيظ يأكلها: «لماذا بيتسم المذيع؟!» تغير القناة، و لكن لم يكن الحال أفضل في القنوات الفضائية الأخرى: «الفضائيات مثل نار جهنم تصرخ هل من مزيد؟!» (المصدر نفسه: ١٢١). تصل أمل إلى حالة الانهيار و الكتابة من هذه الأوضاع، و تقرر التحول

في مدينة عمان لكي تباعد قليلاً من الموموم، فتجلس على منضدة في إحدى المتزهات، فتسمع حديث رجلين عراقيين عن أوضاع العراق! يقول الأول:

«- أمريكا لن تترك العراق لأهله...»

- الثاني: سنخرجها بالقوة... نريد استرجاع عافية الوطن و عافيتنا.

- لكن العافية لاتأتي مع المحتل... سندفع الكثير من الدماء... أكثر مما تتصور.

- هل أنت مع بقاء النظام؟

- لست مع النظام و لا مع أمريكا... أنا واحد من الذين يتمنى زوال النظام و لكن بأيدي

عراقية...» (المصدر نفسه: ١٣٢).

يتجلى للقارئ من خلال هذا النص رفض الشعب العراقي لوجود المحتل في بلدهم و لوجهة إسقاط النظام، فالشعب رغم موقفه من نظام البعث لكنه لايرغب أن يكون نهايته بيد المحتل الذي دخل بلدهم بعنف، و استباح دماهم، و سلب أموالهم، و حوّل البلاد إلى أنقاض. وتستمر الرواية بمتابعة أمل و نديميتها جمار لأخبار وطنهم العراق، و «يتابعان حفلة الموت معاً». «عرض مأساوي عن طريق الناصرية و النجف لعشرات النساء و الاطفال الفارين و هم يطلبون الماء...». تقول أمل و الأسي يقتلها:

«يعطشون و هم أهل الأهمار؟!»

ألف سؤال يجالج فكر هدية حسين فتكشف عنه بلسان حال أمل و هي تقوم بمشاهدة هذه التصاوير عبر الفضائيات، فتظن أن الأموات أيضاً قد تركوا الحياة معبئين بأسئلة دون جواب! فتقول: «- تنبثق من بين الظلمة تلك الوجوه التي عرضتها الفضائيات... ووجه شوهتها خرائط الدم المتخثر، عيون مفتوحة على ألف علامة استفهام لاتجد إجابة...» (المصدر نفسه: ١٥٠، ١٨٨).

وبعد مضي عشرين يوماً من القتل و القصف و الدمار «دخلت الجيوش الأمريكية إلى قلب بغداد و مزقت شرايينه» (المصدر نفسه: ١٩٥). «نعم انتهى كل شيء، دخلت الدبابات الامريكية و سيطرت على بغداد و معظم المدن الأخرى، خرج الناس إلى الشوارع... مستغربين ما يحدث، غير مصدقين... واجمين خائفين مما سيأتي...» (المصدر نفسه، ٢٠١).

وهكذا خمسة و ثلاثون عاماً من الحكم ينتهي ليبدأ النهب و السلب و الانفلات الأمني، و القوات الأمريكية لم تتدخل، و البلد بلا قادة و لا قيادات. و في الحقيقة إن كل هذه الفوضى: من هروب السجناء، و حصول الناس على مختلف أسلحة الدمار، إلى عدم الحفاظ

على الحدود، و تسلل أشخاص و أحزاب مختلفة و بمقاصد متضاربة من عدّة بلدان العالم، و عدم تدخل القوات الأمريكية لاستتباب الأمن، هي التي أدت إلى (الطائفية) و الحروب الأهلية و تمزيق النسيج الوطني في العراق. قد صوّرت لنا هدية حسين من خلال شخصياتها الروائية موقف الشعب العراقي من الحروب و رفضهم لها و إدانة كل من ساهم في تأجيجها و أيضاً الاحتجاج ضد انتهاك حقوق الإنسان الذي ضاعت منه أحلى سنين حياته في بلد الحروب.

٣. النتيجة

- توصلت هذه المقالة بعد دراسة خمس روايات للروائية العراقية هدية حسين إلى النتائج التالية:
- ١- أرّخت هذه الروايات حقبة مهمة من تاريخ العراق السياسي الذي لم يكتبه مؤرخو السلطة، فكشفت النقاب عنه، ليبقى شاهداً على عصر المجازر بعيداً عن التزوير.
 - ٢- سعت الروائية هدية حسين إلى إظهار آثار الحرب الاجتماعية و النفسية في المجتمع العراقي من خلال طرح المضامين التي عرضتها للقارئ بدقة و وضوح.
 - ٣- سجّلت رواياتها صرخة و إدانة صريحة لكل من ساهم في الحرب و العنف بكل أنواعه: من القتل، و الإبادة، و ضياع حقوق الإنسان و هتك كرامته، و التعنصر البغيض للدين و القومية، ابتداءً بصدام حسين و زمّرتة، و انتهاءً بأمريكا و كل بلدان العالم التي لم تول اهتماماً للشعب العراقي، بل تصيدوا في الماء العكر للوصول إلى مقاصدهم، و أدانت كل العصابات و الأحزاب، و حاولت أن تسهم بدورها روائية في إيقاف مهزلة القتل و الدمار.
 - ٤- أولت اهتماماً كبيراً لمعاناة الإنسان و صراعاته و أزمة حريته المتفتدة و ضياع آماله و رغباته، و جسّدت حيرته و انكساراته بدقة و وضوح و بوصف رائع و حزين، و ذلك من خلال شخصيات رواياتها، بحيث يحس القارئ بكل الملاحظات ليكون ضمن هذه الصورة الحزينة المؤطرة بإطار الظلم و التعسف.
 - ٥- يتجلّى من خلال روايتها بأن صدام حسين قد فرض الحروب على شعبه قبل أن يفرضها على الشعوب الأخرى، مثل: إيران و الكويت؛ و نلاحظ رفضاً واضحاً من قبل الشعب العراقي لسياسة هذا النظام: من القمع، و الكبت، و العنف، و فرض الحروب.
 - ٦- اتجهت الكاتبة صوب الواقعية، و اعتمدت على أسلوب الصراحة في تناولها لقضايا المجتمع.
 - ٧- تنتج روايتها عن تجربة ذاتية، فقد أثرت هذه التجربة في تشكيل نواة توجهاتها الفكرية لتأليف رواياتها.

المصادر

ابوزيد، نصر حامد، *دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة*، بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠.

أبوهيحاء، عمر، «حوار مع هدية حسين»، من شبكة المعلومات، ٢٠١٠،

www.Iraq-ina.com

باسم، جواد، «أفلام عراقية و اعدة في ظل غياب الخطوط الحمراء»، ٢٠١٠ :

<http://www.iraqhurr.org/content/article/1970623.html>

حاتم، لطفي، *الاحتلال الأمريكي و انهيار الدولة العراقية*، منشورات الجمعية الثقافية العراقية، ٢٠٠٧.

حسين، هدية، *بنت الخان*، عمان، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ٢٠٠١.

_____، *ما بعد الحب*، عمان، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ٢٠٠٣.

_____، *في الطريق اليهم*، عمان، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ٢٠٠٤.

_____، *مطر الله*، عمان، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ٢٠٠٨.

_____، *نساء العتبات*، عمان، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ٢٠١٠.

الحيدري، محمد محمد، *الطائفية في العراق حقيقة أم وهم*، بغداد، دار نور الشروق للطباعة و النشر، ٢٠٠٧.

الخيون، رشيد، *ضد الطائفية*، بيروت، دار المدارك، الطبعة الثانية، ٢٠١١.

دوري، نائر، «تداعي الهيمنة الامريكية على العالم»، *قاسيون*، مركز دمشق للدراسات و النظرية و الحقوق المدنية، ٢٠١٠.

شعبان، بثينة، *الشرق الأوسط*، العدد ٩٠٥٠، ٢٠٠٣.

سويدان، سامي، *فضاءات السرد و مدارات التخيل*، بيروت، دار الآداب، ٢٠٠٧.

الغايب، يوسف حمزه، *حياة هديه حسين*، بغداد، ٢٠٠٤.

عبود، سلام، «فن صناعة الاستبداد»، *عيون*، عدد ١٩، ٢٠٠١.

لعيبي، قاسم محمد، *الرواية العراقية و سردية الاختلاف (قراءة لوعي الذات و العلاقة مع الآخر)* بغداد، دار الفراهيدي، ٢٠١١.

لعيبي، قاسم محمد، *الرواية العراقية و سردية الاختلاف (قراءة لوعي الذات و العلاقة مع الآخر)* بغداد، دار الفراهيدي، ٢٠١١.

الناهي، غالب، *هيشم، تفتتت العراق (انهيار السلم و المدني العراقية)*، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٣.

الحواري، احمد ابراهيم، *مصادر نقد الرواية في الادب العربي الحديث في مصر، لبنان، دار المعارف*، ١٩٧٩.